

دين الله واحد

لصاحب النصيحة الأستاذ محمد محمد المدني



إن جميع
الرسالات الإلهية
التي أرسل الله بها
الرسول لهداية
الناس إنما يقصد
بها أمران :
أحدهما : تقرير
الواقع في شأن
الألوهية وما
يصدر عنها من

إرسال الرسل ، وتزليل الكتب ، والبهت والجزاء ...

والآخر : هو التدرج بالناس في مدارج الكمال ، ومداهم
بالأحكام التشريعية التي تصلح بها أحوالهم ، وتستقر بها سمادتهم
ومن الطبيعي أن تتفق الرسالات كلها في الأمر الأول لأنه رجوع
بالبشر إلى شيء متقرر ثابت لا يختلف باختلاف المصور والأحوال ،
وأن ينحصر الخلاف في دائرة النهاج والشرع التفصيلية التي
تتغير بتغير الزمان ، ويتدرج الإنسان في مراتبها بحسب أطواره
وبيئاته ودرجة رقيه في العقل والتفكير . ولذلك كان « الدين »
واحداً على لسان كل رسول بهت ، وكانت « الشرائع » مختلفة
في تفاصيل الأحكام والتعبدات « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً »
وقضية اتحاد الدين على اختلاف الرسل قضية يقررها القرآن
الكريم في كثير من المواضع ، ويكررها على أساليب مختلفة ،
لتنسحق في النفوس ، وتؤمن بها القلوب ، ويدرك الناس أنهم جميعاً
على كلمة سواء ، وأنه لا مبرر للفرق والتنازع والمصائب .

يقول الله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابغين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم
عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .
وهذه الآية تفيد أن أصول الدين ثلاثة :

١ - الإيمان بالله على وجهه الصحيح الذي بين في آيات
أخرى ، بأن يشهد الإنسان أن لا إله إلا الله ، ولا يعبد إلا إياه ،
ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يوالي ولا يماذ إلا فيه ، ولا يعمل
إلا لوجهه ...

٢ - الإيمان باليوم الآخر ، بأن يعتقد أن الله سيبعث
الناس من الأجداث ليحاسبهم على ما قدموا من خير أو شر فيكافئهم
الحسن على إحسانه ، ويجزي السيئ بإساءته .

٣ - العمل الصالح الذي من شأنه أن يسمع المجتمع البشري
ويزيل الشرور والفساد ، وينشر الطمأنينة والأمن ، ويمكن كل
إنسان من أداء واجبه وأخذ حقه على وجه سليم لا يقضى إلى
تزعاج ، ولا يؤدي إلى ظلم .

هذه هي أصول الدين التي يتفرع منها كل ما سواها ، وقد
تضافر رسل الله أجمعون على تبليغها ، وبذل كل واحد منهم في
سبيل تقريرها والمنسكين لها ما ملكه الله من جهد وآتاه من عمر ،
وتلقوها عهداً من الله ينشر فيه سابقهم بلا حقهم . ويؤيد لاحقهم
سابقهم ، وفي ذلك يقول الله عز وجل « وإذ أخذنا من النبيين
ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم
وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً » « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما
أنتنكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن
به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا أقررنا
قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » .

والقرآن الكريم يسوق لنا قصص الأنبياء الذين أرسلهم
الله إلى أقوامهم فنجد الرسالة التي جاءوا بها تكاد تتفق حتى في
الألفاظ التي تحدث بها كل رسول :

ففي سورة « هود » يقص الله علينا أن نوحاً قال لقومه :
« يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون » .
وأن صالحاً قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره
هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » .

وأن شمعياً قال لقومه : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان » .

ويقص القرآن الكريم علينا مثل ذلك أيضاً في سورة الشعراء :
يذكر نوحاً وقومه فيقول : « كذبت قوم نوح الرسلين إذا قال
لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إنى لكم رسول أمين ، فأنقوا الله

وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » .

ويذكر هودا وقومه فيقول : « كذبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تنتفون ، إني لاكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » .

ويذكر بهذا النص نفسه صالحا وقومه ، ولوطا وقومه ، وشعيبا وقومه ، فيبين لنا أنه لا اختلاف حتى في التعبير ، ولذلك يقول الله عز وجل : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » .

وكما نجد هذه الوحدة فيما دعا إليه الرسل قد تناسقت حتى ظهرت في الألفاظ والمبارات التي عبر بها عنها ، نجد أقوام هؤلاء الرسل جميعا يكادون يتفقون في الرد على هؤلاء الرسل ومعارضتهم في دعواهم ، وفي مقدمتهم السادة والكبراء :

فاللأ من قوم نوح يقولون : « ما نراك إلا بشرا مثنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » .

ويصل الأمر بهم في التحدى إلى أن يقولوا : « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » وعاد يقولون لنبيهم « يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتارك

آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين » . وقوم صالح يقولون له متهمين : « يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أتتنا أن نعبد ما كان يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه صريب » .

وقوم شعيب يقولون ساخرين : « يا شعيب أصلا نك تأمرك أن تترك ما كان يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟ إنك لآنت الحليم الرشيد » .

ويصل بهم الأمر إلى أن يقولوا له : يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضميما ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز » .

وهكذا تشابهت قلوبهم ، وتوافقوا على رفض الدعوة بأسلوب واحد ومعنى واحد ، ولذلك يقول الله عز وجل : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » ويقول : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا

ساحر أو مجنون ، أثواسوا به بل هم قوم طاعون » . ومالنا نذهب هذا المذهب والقرآن الكريم يملن في كثير من الآيات وحدة الدين على نحو قاطع إذ يقول : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

ويقول : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورنا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصهم عليك وكلم الله موسى تكليما » .

بل يذهب إلى أبعد من ذلك في التحديد والتوحيد فيعلن أن دين الله منذ كان هو « الإسلام » ، ولن يقبل الله سواء ، وأن الذين اختلفوا فيه من أهل الكتاب إنما كان اختلافهم بفتيا ورجازا وكفرا « إن الدين عند الله الإسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بفتيا بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ، فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأمةين أسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنا على البلاغ والله بصير بالعباد » « ومن يهتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » .

والإسلام في الأصل معناه الانقياد والخضوع ، وقد استعمل بهذا المعنى في القرآن الكريم ، فكل من « أسلم وجهه لله وهو محسن » أي استسلم لأمر الله ورضى به وعمل صالحا ، فهو في نظر القرآن مسلم ، ولذلك جعله الله مقابلا للشرك في مثل قوله : « قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاء في البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين » وجعله مقابلا للكفر في مثل قوله « يا أيها الذين آمنوا لا تأخذوا دينكم من الدين كمالا » وروى الدين القويم بقوله « ومن أحسن ديننا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » والقول القويم بقوله « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » ونحدث عن عباد المؤمنين الذين سيدخلهم الجنة يوم القيامة من سائر الأمم بقوله « يا عباد لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون » .

ويأمر بتوجيه الدعوة إلى أهل الكتاب على هذا النحو فيقول « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

هذا هو دين الله الذي جاءت به كل الرسل ، ونزلت به كل الكتب ، وقد كان دين محمد صلى الله وسلم هو خاتمة هذه الرسالات كلها ، وهو الذي أنبأها ، ولولاه ما عرف أمر رسول عن طريق تطمئن إليه القلوب ، وهو الذي نفاها مما أضيف إليها ، ولولاه ما عرف صحيح من زائف ، وهو الذي أتى بالشرعة الصالحة المناسبة لا وصل إليه الإنسان من رقى في العقل والتفكير والمعرفة ، ولولاه لظلت البشرية تتخبط في ظلمات الأهواء والشهوات والمعصيات ، ولهذا كله تمحض معنى الخضوع لله والانقياد لأمره على ما رسم لعباده في دين محمد صلى الله عليه وسلم فصار لفظ « الإسلام » علماً عليه ، وأنبأنا الله أنه هو الذي ارتضاه بقوله في أواخر ما نزل على الرسول « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » فلم يعد لأحد من البشر بعد ذلك أن يرفضه زاعماً أنه مؤمن بسواه ، فإنه هو الدين وليس له « سوى » ، ومن آمن به فقد آمن برسالات الله كلها ، ومن رفضه فقد رفض رسالات الله كلها ، تلك هي الحقيقة ولن يستريح أهل الأرض حتى يؤمنوا بها ، وبينوا حياتهم وعلاقاتهم على أساسها « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .

محمد محمد المرنبي

المدرس في كلية الشريعة

ضاق هذا العدد عن طائفة من

المقالات القيمة فاضطررنا

إلى إرجائها للمدد المقبل

وقد جاء في القرآن الكريم وصف كثير من الأنبياء ومن أرسلوا إليهم « بالإسلام » : فدوح يقول : « وأمرت أن أكون من المسلمين » وإبراهيم وإسماعيل يدعوان ربهما قائلين « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » ، ويقول الله لإبراهيم : « أسلم » فيقول : « أسلمت لرب العالمين » وبصفه الله بأنه « كان حنيفاً مسلماً » ، ويوسف يدعو ربه فيقول « أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » ، وسليمان يكتب إلى أهل سبا « أن لا تعلموا على وأتوني مسلمين » ويقول لقومه « أيكم يأتيني بمرشها قبل أن يأتوني مسلمين » وملكة سبا تقول : « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » وموسى يقول لقومه « يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » وقرعون حين يدركه الغرق يقول « آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » وقد وصف الله قرية لوط بقوله « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » وقص علينا فيما حكاه عن الجن أنهم يقولون : « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً » .

بهذا كله يبين أن « الإسلام » على لسان هؤلاء جميعاً ، وفي هذه الاستعمالات كلها ، هو الانقياد لله والخضوع له في العقيدة والعبادة والعمل خضوعاً لا يعرف الشرك ولا الواسطة ، ولهذا يعتبر الله جميع الأنبياء وجميع الذين أتوا الكتاب مسلمين بهذا المعنى فيقول عن الأنبياء « يحكم بها النبيون الذين أسلموا » ويقول عن أهل الكتاب « الذين أتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين » ويقول عن الذين كفروا بعبسى وزعموا أن ما جاء به من البينات سحر « ومن أضل ممن اتى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام » ...

ولهذا أيضاً يقول القرآن الكريم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم : « إنا أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين » .

ويأمر المسلمين أن يقولوا « آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أرى موسى وعيسى وما أرى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .